

34 - السيدة الفريعة بنت مالك



ابنة الأسرة المؤمنة

اسمها الفريعة، والدها مالك بن سنان، الأنصاري، الخزرجي، وأخوها مفتي المدينة سعد بن مالك أبو سعيد الخدري رضي الله عنه المحدث والصحابي الجليل، قال عنه ابن الأثير في كتابه «أسد الغابة»، وكذلك ابن عبد البر حين صنّف «الاستيعاب»: «كان أبو سعيد من الحفاظ المكثرين، العلماء، الفضلاء، العقلاء».

ومن أراد أن يحيط علماً أكثر بأسرة الفريعة الطيبة، فليعلم أن أباها لأمها المجاهد البدري قتادة بن النعمان الأنصاري، الرامي المسدّد يوم أُحُد، البطل الذي سألت عينه على خدّه ورحى معركة أحد دائرة، فأسرع إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فردّها بيده الشريفة إلى مكانها فكانت أحسن عينيه.

وأما أخت الفريعة لأمها فهي المؤمنة المبايعة أم سهل بنت النعمان الأنصارية، فرضي الله عن هذه الأسرة الكريمة، كم أصاب أفرادها من الخير والفضل بجوار الحبيب الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم!

ولما نادى المنادي في المدينة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد أصبح بظاهرها، خلّت الدور من أهلها، وخرج الناس لاستقبال ضيفهم الأكرم، وكان مالك بن سنان وابنته الفريعة وسائر أسرته في طليعة المستقبليين.

ونزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ضيفاً على أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري رضي الله عنه، ثم أمر ببناء مسجده الشريف والحجرات الملحقة به لسكن أزواجه، أمهات المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ أجمعين.

وكانت الفريعة رضي الله عنها قد تزوّجت سهل بن رافع أحد رجال الخزرج،

ولكن لم تطل حياته معها، فقد أبقَ عددٌ من عبيده، واضطر إلى الخروج في طلبهم، وكانوا قد أعدوا له كميناً فغدروا به وقتلوه.

ولما علمت الفريعة بمصرعه حزنت عليه حزناً شديداً، وفكرت الفريعة في الرجوع إلى بيت أهلها للعيش بينهم، لكنها وهي التقية المؤمنة، آثرت أن تستشير النبي ﷺ في أمرها.

طاعتها لله ولرسوله

وقد أخرج الإمام مالك في موطنه برواية يحيى، عن مالك، عن سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة، عن عمته زينب بنت كعب بن عجرة أن الفريعة بنت مالك بن سنان - وهي أخت أبي سعيد الخدري - أخبرتها أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ أن تزجج إلى أهلها في بني خذرة فإن زوجها خرج في طلب أعبد له أبقوا حتى إذا كانوا يطرف القدوم لحقهم فقتلوه، قالت: فسألت رسول الله ﷺ أن أزوج إلى أهلي في بني خذرة فإن زوجي لم يتركني في مسكن يملكه ولا نفقة، قالت: فقال رسول الله ﷺ: «نعم» قالت: فأنصرفت، حتى إذا كنت في الحجرة ناداني رسول الله ﷺ - أو أمر بي، فتوديت له - فقال: «كيف قلت؟» فرددت عليه القصة التي ذكرت له من شأن زوجي، فقال: «امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله» قالت: فاعتدت فيه أربعة أشهر وعشراً، قالت: فلما كان عثمان بن عفان ؓ أرسل إليّ فسألني عن ذلك، فأخبرته فاتبعه وقضى به⁽¹⁾.

وما عسى أن تفعل المؤمنة المسلمة المبيعة غير أن تطيع الذي بايعته على السمع والطاعة؟ لقد اعتدت الفريعة أربعة أشهر وعشراً، ثم خطبها رجل من أنصار بني ظفر فتزوجته، وباتت الفريعة ؓ - مرجعاً لهذا الحديث ترويه لكل من يسألها عنه.

(1) رواه: مالك/كتاب: الطلاق/باب: مقام المتوفى عنها زوجها في بيتها حتى تحل/برقم:

محبة أهلها للجهاد

كانت أسرة الصحابي الجليل مالك بن سنان محبة للجهاد، وملازمة لمجالس رسول الله ﷺ.

ولما خرج رسول الله ﷺ إلى بدر كان مالك مع الذين ظنوا أن لن يكون قتال، لذلك لم يخرج إلى بدر، ولم يُكْحَل عينيه برؤية سادة قريش وزعمائها وهم يتهاوون صرعى على أرض بدر، ولا سيما أولئك الذين أدوا رسول الله ﷺ كأبي جهل، وعقبة بن أبي معيط، وغيرهما من كبار السفهاء والمشركين.

حتى إذا كان يوم أحد علم رسول الله ﷺ أن قريشاً قد حشدت له الحشود، وألّبت عليه القبائل من تهامة وغطفان، وتحالفت مع الأحابيش، فشاور أصحابه - كعادته - قبل الخروج، فكان رأي كل الذين لم يخرجوا يوم بدر أن يخرجوا ليعوّضوا ما فاتهم من الخير.

وكان مالك بن سنان من أشد المتحمسين للقاء العدو، فقد وقف يقول: يا رسول الله؛ نحن والله بين إحدى الحسينين، إما أن يظفرنا الله بهم، فهذا الذي نريد، فيذلهم الله لنا، فتكون هذه وقعة مع وقعة بدر، فلا يبقى منهم إلا الشريد؛ والأخرى يا رسول الله، يرزقنا الله الشهادة، والله يا رسول الله، ما أبالي أيهما كان، إن كلاً لفيه الخير.

ولما تقرّر الخروج وقف رسول الله ﷺ يرتّب جنده ويستعرضهم فرأى بعض الغلمان فردّهم لصغرهم وعدم أهليتهم للمشاركة في القتال، وكان بين الذين ردّهم رسول الله ﷺ أبو سعيد الخدري الذي كان بصحبة أبيه المجاهد مالك بن سنان.

وعاد أبو سعيد وهو يبكي بحرارة لحرمانه من شرف الجهاد، وتلقّت الفريعة أباها أبا سعيد، وراحت تكفكف دموعه، وتمنّيه بالخروج في غزوات أخرى قادمة حتى يزهد الشرك وتعلو راية الإيمان.

وأخذت الفريعة وصواحبها يتلقّفن أخبار ما يجري في ساحة المعركة،

وأشاع أحد المشركين أن محمداً ﷺ قد قتل، ودبَّت الفوضى بين صفوف المسلمين، فمنهم من دفعه الخبر إلى اليأس والاستسلام، ومنهم من شحذ عزيمته، وملاه حماسة فاندفع إلى الأمام كأنس بن النضر الذي لم يتأكد من الخبر، لكنه أثار الموت على ما مات عليه الحبيب الأعظم ﷺ، والتحم بالعدو وظل يقاتل حتى رزق الشهادة.

والحقيقة أن رسول الله ﷺ قد كسرت رباعيته، وشج وجهه، وشقت شفته، وخضبَّ الدم وجهه الشريف، فهبَّت ثلثة من الصحابة إلى مكان وجوده مستلقياً على الأرض وجعلوا من أنفسهم تروساً ليحولوا دون وصول أي شيء يضره من العدة إليه.

وأسرع أبو عبيدة بن الجراح ؓ إلى رسول الله ﷺ ليتنزح بأسنانه حلقتين من حلقات المغفر انغرزتا في ذلك الوجه المنير، وبادر مالك بن سنان، والد الفريعة وأكبَّ على وجه النبي ﷺ يلحق الدم الذي غطَّاه، ونظر إليه رسول الله ﷺ فوجده يبتلعه، فقال له ﷺ: «مُجِّه»، فقال مالك: والله، لا أمجُّه أبداً! وخالط دمه دم رسول الله ﷺ فوقى نفسه من النار، لأن النار قد حُرِّمت على كل جزء من جسد رسول الله ﷺ.

استشهاد أبيها

وأخذ مالك ينافح عن رسول الله ﷺ حتى سقط دونه شهيداً، وأقبل طلحة بن عبيد الله فانحنى حتى نزل بجسمه تحت جسد رسول الله ﷺ ثم نهض به ومضى إلى صخرة خلف معسكر القتال فأضجعه عليها، وسمع الصحابة رسول الله ﷺ يقول: «أَوْجَبَ طَلْحَةُ»، أي وجبت له الجنة.

لقد دخل مالك بن سنان امتحان الشهادة فاجتازه بتفوقٍ كبير، وبأحسن تقدير، ذلك أنه لم يمت حتى كانت ملاسته لجسد رسول الله ﷺ ولعقه لدمه الزكي الشريف آخر عهده بالحياة.

وخسر المسلمون الجولة يوم أُحُد، لأن رماتهم خالفوا أوامر رسول الله ﷺ حين تركوا مواقعهم التي جعلهم فيها، وأمرهم ألا يبرحوها، وتوقف

هدير القتال، وعاد رسول الله ﷺ إلى المدينة، وخرج الناس يتفقّدون العائدين معه، فالتقى أبو سعيد الخدري برسول الله ﷺ فابتدره رسول الله ﷺ بقوله: «سَعْدُ بْنُ مَالِكٍ؟» قال: نعم، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، وانحنى أبو سعيد على رسول الله ﷺ يقبل ركبتيه الشريفتين، فقال له رسول الله ﷺ: «أَجْرَكَ اللَّهُ فِي أَبِيكَ يَا سَعْدُ».

وكانت الفريعة بنت مالك ؓ - وجميع أهلها قلقين على رسول الله ﷺ، فلما عاد إليهم أبو سعيد زفّ إليهم نبأ سلامة رسول الله ﷺ بادية ذي بدء، ثم قال لهم: وأتخذ الله تعالى من المؤمنين شهداء، كان أبي بينهم، فاسترجع القوم، وحمدوا الله على سلامة نبيهم ﷺ، وقالوا: «كل مصيبة بعد رسول الله ﷺ جَلَلٌ»⁽¹⁾.

واحتسبت الفريعة والدها عند الله، واستسلمت لمشيئته، واستعانت بالصبر والصلاة كما أمر، رب الخلائق والبشر، ومن أحقّ منها بذلك وقد ربّأها والدها على الإيمان، وتفياّت ظلال القرآن؟ فلتوطن نفسها على لقائه في إحدى الجنان.

روايتها الحديث

كانت الفريعة ذات عقل راجح، وفكرٍ واعٍ، وقد أهلها حضورها لمجالس رسول الله ﷺ إلى تلقّي الحديث عنه وبلوغ سدة الرواية، وبلغ عدد الأحاديث التي روتها عن رسول الله ﷺ ثمانية، ومما يدل على مكانتها الرفيعة أخذ عثمان بن عفان ؓ عنها حديث عدة المتوفّي عنها زوجها الذي ورد أنفأً، وقضى به، كما عمل به فقهاء المدينة والحجاز ومصر والشام والعراق.

إنه لشرف كبير بلغته الفريعة يوم فتحت قلبها للنفحات التي تحفّ بمجالس العلم التي كان يديرها المعلّم الأول أعلم الناس، لأنه تلقّى علمه

(1) جَلَلٌ: هيئة.

عن العليم العلام، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، لقد كان معلّم الناس الخير، ولم يكن للشر في علمه نصيب.

اشراكها في بيعة الرضوان

لقد تشرفت الفريعة بمرافقة رسول الله ﷺ مع بعض صواحبها من نساء الأنصار إلى الحديبية، ونالت من ربها الرضوان.

لقد قال الله تعالى في كتابه العزيز واصفاً أولئك المبايعين والمبايعات:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَعَانِدَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾ [الفتح: 18، 19].

وفازت بيشارة دخول الجنة فقد أخرج الترمذي عن سُلَيْمَانَ التَّيْمِيِّ، عَنْ خِدَاشٍ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لِيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ مَنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ إِلَّا صَاحِبَ الْجَمَلِ الْأَخْمَرِ» قَالَ أَبُو عِيْسَى التَّرْمِذِيُّ: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ»⁽¹⁾.

وَحَدَّثَ قُتَيْبَةُ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِمَّنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ»، قَالَ أَبُو عِيْسَى التَّرْمِذِيُّ: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ»⁽²⁾.

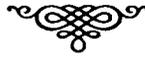
وكانت الفريعة ممن بايع النبي ﷺ يومئذٍ وقد روى مُعَاوِيَةُ بْنُ عَمْرٍو، قَالَ: حَدَّثَنَا زَائِدَةٌ، عَنْ سُلَيْمَانَ، عَنْ أَبِي سُفْيَانَ، عَنْ جَابِرٍ، عَنْ أُمِّ مُبَشَّرٍ

(1) رواه: الترمذي/كتاب: المناقب عن رسول الله ﷺ/باب: فيمن سب أصحاب رسول الله ﷺ/برقم: (3798).

(2) رواه: الترمذي/كتاب: المناقب عن رسول الله ﷺ/باب: في فضل من بايع تحت الشجرة/برقم: (3795).

قَالَتْ: جَاءَ غُلَامٌ حَاطِبٍ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا يَدْخُلُ حَاطِبُ الْجَنَّةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَذَبْتَ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحَدِيثِيَّةَ»⁽¹⁾.

رحم الله الفريعة وأهلها وحشرهم مع خاتم المرسلين، يوم يقوم الناس لرب العالمين.



(1) رواه: أحمد/كتاب: باقي مسند الأنصار/باب: حديث أم مبشر امرأة زيد بن حارثة/
برقم: (25800).